مهارة الاستماع وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها

سمير جعفر

1. تمهيد:

إننا إذ نقوم بكتابة هذا المقال، فإننا نسعى إلى فتح أعين الباحثين الشباب على مجال قل البحث فيه وقل الاهتمام به، سواء من قبل الوزارة أو من قبل المختصين باللغة العربية عامة وباللسانيات التطبيقية خاصة.

إن شساعة هذا الموضوع تفرض علينا تخصيص الحديث على مهارة واحدة تُعد أهم المهارات اللغوية وأكثرها استعمالا من قبل مستعملي أي لغة طبيعية وهي مهارة الاستماع. وسيتم ذلك من خلال المنهجية الآتية:

2. اللغة العربية بين الإقبال والنفور:

لقد ازداد الاهتمام في أيامنا هذه، نظرا للتحولات السياسية والاجتماعية التي يعرفها العالم الغربي، بمجال تعليم اللغة العربية وتعلمها للناطقين بغيرها. لقد أضحى تعلم اللغة العربية في مقدمة اهتمامات الطالب الأجنبي، سواء أكان ينتمي إلى جامعات أوربية أو إلى جامعات أمريكية أو إلى غيرها من الجامعات الدولية. الأمر الذي دفع بكثير من الباحثين في اللغة العربية، أو لنقل العرب المقيمين في الدول الغربية، إلى الاستفادة من هذا الوضع وإنتاج عدد من البرامج والمناهج الخاصة بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

إن ازدياد إقبال الأجانب على تعلم اللغة العربية ساهم في خلق الكثير من المراكز والمعاهد في العالم العربي التي تجعل من اللغة العربية محور اهتمامها. ولا يُستثنى المغرب من هذا التحول، حيث لا تكاد تخلو كل مدينة من معهد أو مركز يروم تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

يختلف النظر إلى الطالب الأجنبي باختلاف خلفياته الثقافية والدينية، حيث يمكن تقسيم طلاب اللغة العربية الأجانب إلى:

أولا: طالب مسلم غير عربي؛ ويمتاز بتقاسمه للجانب الديني مع العالم العربي، الأمر الذي يسهل نوعا ما التعامل معه وتسريع عملية تعلمه للغة العربية.

ثانيا: طالب غير مسلم غير عربي؛ يبتعد كل الابتعاد عن الثقافة العربية، الأمر الذي يفرض طريقة خاصة في التعامل معه.

في يوم يزداد العالم الغربي إقبالا على تعلم اللغة العربية وتعليمها لأبنائه، يزداد معها نفور العالم العربي، أفرادا وجماعات، من تعلم هذه اللغة وتحبيب أبنائه في تعلمها. إن الهوة بين معظم الشباب المغربي وبين تعلم العربية تزداد يوما بعد يوم نظرا لارتباطهم وآبائهم بسوق الشغل ظانين أن تعلم اللغات الأجنبية، الفرنسية والانجليزية، هو السبيل إلى الحصول على المراتب العليا في المجتمع.

3. مهارة الاستماع: أهميتها وتكاملها مع بقية المهارات

يُعد الاستماع مهارة من المهارات التي يتم استعمالها باستمرار سواء بإرادتنا أو بدونها. فنحن نستمع طوال اليوم في البيت، والشارع، والمدرسة، والأندية مع الأصدقاء والإخوة والأقارب (...). وتتم عملية الاستماع بالتقاط أصوات مختلفة عبر الأذن وإيصالها إلى الدماغ عبر ألياف خاصة ليقوم، بعد ذلك، بتصفيتها وتحليلها وتحديد معانيها ثم تقرير نوعية الإجابة. فنحن نقضي أكثر الأوقات في الاستماع عن فعل أيّ من المهارات الأخرى؛ حيث يقضي، على سبيل المثال، الشباب في الاستماع (55%) [1] تقريبا من وقتهم في التواصل، إذ يستمعون إلى أوليائهم وأساتذتهم وأصدقائهم وإلى التلفاز والسينما وغيرها من الأنشطة اليومية. ورغم توظيف هذه المهارة بكثرة إلا أنه لا يتم إيلاؤها الأهمية التي تستحقها، أو ربما يتم الاستخفاف بقيمتها، أو ربما يُعرف عنها أقل مما يُعرف عن المهارات الأخرى. وقد يرجع هذا إلى عدم إيلاء هذه المهارة المكانة الحقيقية التي تستحقها؛ سواء في برامجنا التعليمية أو في حياتنا اليومية أو المهنية. وعلى العكس من ذلك، نجد الاهتمام الأكبر ينْصَب على المهارات اللغوية الأخرى التي لا تستأثر بالحيز الأكبر من التواصل الإنساني. ولعل السبب وراء هذا الاهتمام المفرط بالمهارات الثلاث الأخرى هو إمكانية الإحساس بها وبتجلياتها والقدرة على ضبطها وتقييمها عكس مهارة الاستماع التي يصعب فيها تحقيق تقييم فعّال.

إن الجهل بهذه المهارة، أي مهارة الاستماع، يجعل الفرصة في تذكر ما تم الاستماع إليه (50%) فقط، وتنزل هذه النسبة إلى (25%) [2] بعد يومين فقط من التقاط هذه المعلومة وتزداد في الانخفاض إلى أن تصل إلى مرحلة الاضمحلال وهي المرحلة التي لا يتذكر فيها المستمع أدنى شيء مما سمعه. وهكذا، فإن الاستماع الضعيف هو نتيجة لسلوكات سيئة تتطور بسبب عدم 30 تمرننا عليه. ولكن الجميل

في الأمر هو أن هذه المهارة، حسب مونتكومري (Montgomery)، «مهارة يمكن تعلمها» (L. Grice and F. Skinner; 1995: 64). وتحفزنا هذه الفكرة على المضي قدما نحو دراسة هذه المهارة دراسة علمية تمكننا من تطوير فعالية هذه المهارة لتحقيق تواصل أفضل.

إن الفصل في الحديث عن المهارات اللغوية أثناء دراستها وتعليمها للطلبة ما هو إلا فصل إجرائي فحسب نرجو من ورائه تسهيل عملية تعليم وتعلم اللغات. فالمهارات اللغوية تشترك في مجموعة من الميزات وتنفصل في أخرى، وهذا ما نلحظه في الجدول أدناه:

	استقبالية	إنتاجية
وسيلة سمعية – مكتسبة	الاستماع	المحادثة
وسيلة بصرية – متعلمة	القراءة	الكتابة

يتضح جليا من خلال هذا الجدول أن مهارة الاستماع تشترك، من جهة، مع مهارة القراءة باعتبارهما مهارتين يَستقبِل من خلالهما طالب اللغة مختلف المعلومات والأفكار، ومن جهة ثانية، مع مهارة الكلام باعتمادهما على وسيلة صوتية.

إن مهارة الاستماع، إذن، مهارة أساسية في استقبال المعلومات دون بذل جهود كثيرة كما هو الحال مع مهارة القراءة. إضافة إلى أنها تتكامل مع بقية المهارات، حيث بفضلها يستطيع مستعمل اللغة أن ينتج اللغة من خلال الكلام. وهذا التكامل في إنتاج اللغة يمكن ملاحظته في الشكل الآتي:

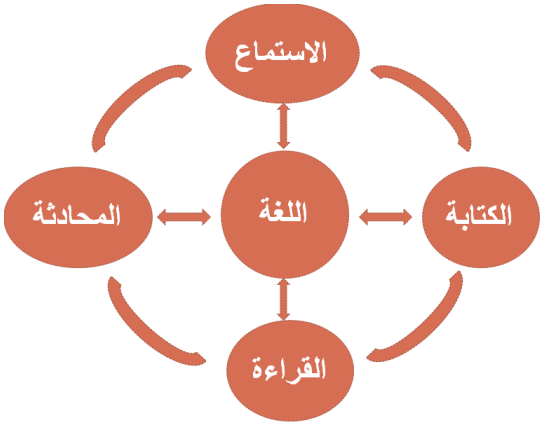

شكل: تكامل المهارات اللغوية

4. مهارة الاستماع وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها:

1.4. الاستماع والإنصات: خصائص وميزات،

يمكن التمييز في مهارة الاستماع بين مستويين اثنين، هما؛

- الأول هو الاستماع الذي يتم بشكل لا إرادي، أي لا يُحتاج فيه إلى تركيز أو انتباه.
- والثاني هو ذلك الاستماع –أو الإنصات– الذي يعتمد على تركيز المستمع وانتباهه لما يقال.

وهكذا، نستطيع التفريق بين الإنصات والاستماع حسب ما جاء على لسان فيغارو، حيث قال "إن الإنصات، هو أحسن طريقة للاستماع الجيد." (J. C. Martin; 1999: 24) ويقول مارتان بأن هذا القول يعطي للإنصات قيمة الفعل الإرادي في حين قد يكون الاستماع سلبيا، وعليه "يُنظر إلى الإنصات الجيد بأنه الإدراك والفهم." (نفسه: 24) وهكذا، فإن هذا التمييز سيعطينا القدرة على معرفة الاستماع الفعال من غيره.

لقد جاء في كتاب (Mastering Public Speaking) بأن الإنصات يختلف عن الاستماع في أربعة أساليب أساسية، هي:

أ- الإنصات متقطع: الإنصات ليس نشاطا مستمرا بل متقطعا، حيث يتم من وقت لآخر عندما نختار التركيز والتجاوب مع المثيرات من حولنا. فهو مهارة متعبة تحتاج إلى الكثير من التركيز والدقة بغية تخزين أكبر قدر ممكن من المعلومات، عكس الاستماع الذي يتم بشكل مستمر وطبيعي دون أن يستهلك الكثير من الطاقة.

ب- الإنصات مهارة متعلمة: إن مهارة الإنصات مهارة قابلة للتعليم والتعلم، عكس مهارة الاستماع التي تعد قدرة طبيعية لا تحتاج إلى تمرين أو تدريب لأنها تنشأ مع تكون الإنسان.

ج- الإنصات إيجابي: إن مهارة الاستماع، بكل بساطة، عبارة عن استقبال مثيرات شفهية من جهة معينة، حيث لا تتطلب القيام بأدنى مجهود، إذ، في أي وقت، يمكن لعظمة الأذن الداخلية أن تهتز لتثير باحة السمع. بل، أكثر من ذلك، يمكن للأذن أن تستقبل الأصوات والمرء في حالة نوم عميق. ولهذا تعد مهارة سلبية، بينما تكون مهارة الإنصات حيوية؛ أي تتطلب منك التركيز على الموضوع المثار واستيعابه ومعالجته مع القيام برد فعل تجاهه. إضافة إلى أنه يمكن أن تتحسن فعاليته وقوته مع التدريب والممارسة العلمية العملية المستمرة في فضاءات مختلفة.

د- يتضمن الإنصات استعمال الرسالة المستقبلة: إن من شروط عملية الإنصات العمل على استعمال الرسائل المستقبلة وذلك لزيادة تخزين معلومات جديدة، أو لتعلم أمور جديدة، أو للاحتفاء بشخص ما، أو من أجل التسلية فحسب. ويعني هذا الاستعمال وجود تفاعل بين المتكلم والمخاطب، حيث يستمع هذا الأخير إلى الرسالة بتدبر وتركيز لفهم معانيها الخفية ثم العمل على صياغة جواب أو رد فعل يتناسب والمقام التواصلي المطروح. أما الاستماع فلا يحتاج بالضرورة إلى استعمال الرسالة المستقبلة وذلك لأن بعضها أو كثيرا منها ليس في غاية الأهمية بالنسبة للمستمع، حيث قد تكون مجرد أصوات لا فحوى لها أو مجرد كلام زائد لا قيمة له.

ولكن، يجب الإشارة كذلك إلى أن الإنصات لا يحقق الغاية منه في كثير من

الأوقات، حيث قد يُسيء إلى الرسالة المُستقبَلة وذلك بضعف هذه المهارة لدى المُستمِع.

وهكذا يمكن القول إن الإنصات رغم أهميته البالغة في إنجاح التواصل وتفعيله إلا أنه يحتاج إلى الدعم والتقوية عن طريق التعلم.

1.4. مهارة الاستماع وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها،

يسعى الطالب الأجنبي أثناء تعلمه للغة العربية إلى تحقيق مهارتين اثنتين (مهارة الاستماع والمحادثة)، وذلك نظرا لقدرتهما على تمكينه من التواصل مع المتكلمين الأصليين بهذه اللغة. فبمهارة الاستماع يمكن لطالب اللغة أن يستقبل مختلف الأفكار والمعلومات المطروحة باللغة العربية سواء أكان ذلك في الشارع العربي أو في الفضائيات العربية. وعليه، نحتاج إلى طرق خاصة واستراتيجيات تتناسب ومراحل تعلم هذا الطالب.

إن أكثر ما يجد فيه مُدرِّس اللغة العربية للناطقين بغيرها صعوبةً إيجادُ وسائل سمعية بصرية مناسبة ثقافيا ولغويا ومعرفيا للمتعلم الأجنبي، خصوصا إذ علمنا أنه لا يمكن التعامل مع هذا الأخير باعتباره مبتدئً في الحياة ولا تلميذا في مقتبل العمر.

يكاد أستاذ العربية داخل المغرب وخارجه الاكتفاء ببعض المقررات والمراجع الخاصة من قبيل «**الكتاب في تعلم العربية**» بأجزائه المتعددة، و«**أهلا وسهلا**» المعتمدين على اللغة الانجليزية كوسيلة للشرح والتوضيح، وكتب أخرى مثل «**أيها الطالب**» المقدم باللغة الفلامانية، و«**العربية للجميع**» المقدم باللغة العربية. استطاع مؤلفو هذه الكتب تقديم نماذج جيدة ومتميزة لتقوية مهارة الاستماع لدى طلاب اللغة العربية الأجانب؛ إما عن طريق أشرطة أو أقراص صلبة أو عن طريق الانترنت.

إن تدريس مهارة الاستماع للناطقين بغير اللغة العربية في حاجة إلى مجموعة من المراحل الأساسية:

- المرحلة الأولى: قبل الاستماع: تحتاج مهارة الاستماع من طالب اللغة العربية إلى قدرة لغوية عالية، الأمر الذي نحتاج فيه إلى استعدادات قوية قبل الانتقال إلى مرحلة الاستماع لشريط فيديو أو إلى شريط سمعي. تتجلى تلك الاستعدادات في تقوية معجم الطالب اللغوي عن طريق تمارين معينة، إضافة إلى تفعيلها في حوار تواصلي يرتبط بموضوع الشريط المستهدف، كما يمكن الاعتماد على نص قرائي لتثبيت مفردات الطالب من خلال توظيفها في سياق حقيقي.

- **المرحلة الثانية:** أثناء الاستماع: بعد التأكد من أن الطالب قد تمكن من المفردات الأساسية من خلال استعمالها بنجاح في سياقاتها المناسبة، يمكن الانتقال إلى مرحلة الاستماع الذي يتوزع إلى ثلاث خطوات هي:

1) **الاستماع الأول:** يُرجى منه أن يتوصل الطالب إلى نقطة أو نقطتين

أساسيتين من أفكار الشريط تكون بداية فتح حوار نقاش أولي.

2) **الاستماع الثاني:** يُنتقل فيه إلى الإجابة عن مجموعة معينة من الأسئلة التي تختلف طريقة طرحها باختلاف الأهداف.

3) **الاستماع الثالث:** يتم التأكد فيه من دقة فهم الطالب لمحتوى الشريط وتغطية ما فاته من تفاصيل صغيرة.

• **المرحلة الثالثة:** بعد الاستماع: أهم ما يمكن القيام به في هذه المرحلة هو استثمار موضوع الشريط في أنشطة بعدية ككتابة مقال قصير عن آراء الطالب في الأفكار المدروسة موظفين المعجم الجديد.

خاتمة:

إن تحقيق مهارة الاستماع وتفعيلها داخل الصف يحتاج إلى تكامل باقي المهارات اللغوية إما قبل أو أثناء أو بعد النشاط. إضافة إلى أن قلة البرامج السمعية البصرية الخاصة بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها يجعل من الأمر أكثر صعوبة وأكثر تحديا للباحثين في هذا المجال.

1. المراجع المعتمدة:

• Devito, Joseph A.; (1997) "Human Communication"; 7 Ed.; Longman.

• Jean-Claude, Martin; (1999) "Le Guide de la Communication"; Marabout.

• Grice, George L.; Skinner, John F.; (1995) "Mastering Public Speaking"; 2nd Ed.; By Allyn & Bacon/ A Simon & Schuster Company; Needham Heights, Massachusetts.

• Pearson, Judy c.; Nelson, Paul E.; Titsworth, Scott; Harter, Lynn; (2003) "Human Communication"; by The McGraw-Hill Companies.

الهوامش

1 - انظر هذه النسبة المئوية في: J. A. Devito; 1997: 54

2 - اعتمدنا على Guilbert 1988 in J. Pearson and all; 2003; 139 للحصول على هذه النسب المئوية.